الفصل الثاني

وسائل الإعلام في عصر النبوة

ما طبيعة وما مفهوم وسائل الإعلام أو وسائل الاتصال الجماهيرى؟

إن أشهر من كتب عن وسائل الإعلام الباحث الكندى الأصل (مارشال ماكلوهان ١٩١١ــ١٩٧٩) في كتابه (فهم الوسائل.. إمتدادات للإنسان) الذي نشرت (فرانكلين) بالقاهرة ترجمة له عام ١٩٧٥ تحت عنوان: كيف تفهم وسائل الاتصال؟ وهو صاحب العبارة المشهورة الوسيلة هى الرسالة. وتقوم فكرته الرئيسة على أساس أن الوسيلة التي تنقل المضمون الإعلامى تؤثر في المتلقين من قراء ومستمعين ومشاهدين تأثيراً لا شعوريا. وأن هذا التأثير اللاشعورى يغير سلوكهم. ويفسر ماكلوهان وجهة نظره في أهمية الوسيلة في تطور المجتمعات بتقسيم تاريخ البشرية إعلامياً إلى ثلاثة أطوار. في الطور الأول كان الإعلام مباشرا من الفم إلى الأذن، فالإنسان في هذا الطور عاش حياة صغيرة التجمع محدودة الترابط. وفي الطور الثانى انتقل الإنسان إلى طور الطباعة. تلك التي جعلت الإنسان يجنح إلى الفردية، وتلك التي ساعدت في شعور الإنسان بأهمية القومية؛ ذلك لأن حروف جوتنبرج في تتابعها وفي سطور جمعها كانت صاحبة التأثير في نشأة الفردية والقومية. وفي الطور الثالث انتقل الإنسان إلى طور الإذاعة.

إن مارشال ماكلوهان يرى أن الحضارة تستقى سماتها من وسيلة الإعلام السائدة. ومن ثم فإن عصر الطباعة جعل الفكر الإنسانى يتخذ شكل التسلسل والتتابع مثل الكلمات والسطور. وفي عصر الراديو والسينما والتليفزيون والحضارة الآلية بعقولها الإلكترونية وأقمارها الصناعية أصبح الناس يشعرون بضرورة المشاركة الكاملة في حياتهم. إن المعلومات التي تحويها تلك الوسائل معلومات مدروسة ومنظمة، وهى تمثل تجمعات كلية مثل الدوائر الكهربائية، ومن ثم كان أثرها هو النزوع إلى الاندماج وإلى الكلية وأن يعيش الإنسان بكل حواسه. ومارشال ماكلوهان على ذلك يرى أن وسائل الإعلام امتدادات للبشر، امتدادات لحواس الإنسان، ثم امتدادات لأعصابه. وأن تأثيرها على الإنسان ينبع من أنها جزء لا يتجزأ منه. وأنه لابد للإنسان من أن يعتمد على حواسه ليدرك ما يجرى حوله.

وهذا التفسير الذي رآه ماكلوهان لوسائل الإعلام هو تعبير عن الثقافة الأمريكية المعاصرة. وهو تعبير عن الآلية التي عاش ماكلوهان في ظلها. وهو تفسير لا يصدق على كافة المجتمعات بهذه الدرجة نفسها. ولا يفسر اختلاف النظم الاقتصادية والاجتماعية.. بل لا يفسر حتى تاريخ الوسائل في تطورها وتداخلها وتشابهها. ولقد سبق هـ. ج ويلز في تصور تاريخ البشرية وفق تطور وسائل الاتصال. ويكاد ويلز يرى قصة التطور البشرى قصة تطور إعلامى. فإن هذا الكاتب العالمى يرى أن الإنسانية مرت بمراحل في تاريخها. ولكنه لا يحدد هذه المراحل بالعصر القديم ثم العصر الوسيط ثم العصر الحديث.. وإنما نظر إلى تطور التاريخ على أساس ظاهرة اجتماعية واحدة وهى التي تنزع بالإنسان إلى تحطيم الحواجز والاتصال بأخيه الإنسان في مكان آخر وفي مجتمع آخر. وقسم ويلز مراحل التاريخ وفق هذه النظرية إلى خمس مراحل:

المرحلة الأولى: هى مرحلة الكلام:

وهو يرى أن هذه المرحلة الأولى في حياة الإنسانية هى التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات لأن الكلام أو النطق نابع من الفكر ومن العقل. من هنا يبدأ تاريخ الإنسانية بتمييز الإنسان عن غيره من مخلوقات الله بالكلام.

المرحلة الثانية: هى مرحلة الكتابة :

بعد مرحلة الكلام تقدم الإنسان فاخترع رموزاً يعبر بها عن مشاعره وأفكاره ووثائقه عبر الزمان والمكان، هذه الرموز هى الكتابة.

المرحلة الثالثة: هى مرحلة اختراع الطباعة:

وفي هذه المرحلة أصبحت الكتابة ذات أثر فعال. واتسعت وظيفتها بإمكان نقل الكلمة المطبوعة من مكان إلى آخر بسهولة، وبتعدد وكثرة النسخ المطبوعة زاد التأثير. والمعروف أن اختراع المطبعة يرجع إلى عام ١٤٣٦ ميلادية على يد (جوتنبرج) في ألمانيا.

المرحلة الرابعة: هى المرحلة العالمية:

وهى المرحلة التي استطاعت فيها البشرية أن تجعل نقل الأشياء بصورة عالمية بفضل المخترعات الحديثة من بخار وكهرباء ووسائل المواصلات السريعة.

المرحلة الخامسة: مرحلة الإذاعة:

يرى ويلز أن هذه المرحلة قمة التقسيم الخامس الذي رآه يمثل تطور تاريخ البشرية؛ لأنه يرى أننا بواسطة الإذاعة استطعنا أن نتخطى في نقل المشاعر والأفكار الحدود والحواجز الجغرافية.

وعندما يطغى الاهتمام بركن من أركان العملية الإعلامية ينسب إليه ركن أخر بل يذوب فيه. ويتركز الاهتمام على الركن الأهم وفق ظروف العصر. لقد رأى مارشال ماكلوهان أن الوسيلة تحمل الرسالة وأطلق صيحته الوسيلة هي الرسالة كما سبق القول. وكان ذلك تعبيراً عن أهمية الوسيلة عنده. ونقيض لهذا التركيز على الوسيلة كان العرب الأقدمون يركزون على المضمون فأطلقوا اسم الرسول على الرسالة وهم يرون في ذلك القول بيت أسامة بن لؤى:

بلغا عامراً وكعباً رسولاً أن نفسي إليهما مشتاقة

(رسولا): فعولا، بمعنى رسالة. حيث جعل الشاعر الرسول هو الرسالة.

ويضيفون قول الشاعر:

لقدكذب الواشون مابحت عندهم بليلى، ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة، وإنما سموا الرسالة رسولا إذا كانت كتاباً أو ما يقوم مقام الكتاب من شعر ونحوه. ويمكننا القول بأن الوسيلة ليست الآلة أو الجهاز. كما يمكننا القول بأن الوسيلة إعلامية أولاً وأخيراً. فالكتاب وسيلة الإعلام إذا كان جماهيريا وفي الثقافة العامة وليس وسيلة إعلام إذا كان متخصصاً ومحدداً. والبرقية وسيلة اتصال شخصى إذا أرسلتها للتهنئة أو التعزية أو الإخبار بسفر أو شئ لبيتك أو صديقك أو من تتعامل معه. وتصبح وسيلة اتصال جماهيرى في أعمال وكالات الأنباء لنقل الأخبار والمواد الإعلامية

نقول إن الوسيلة ليست الآلة أو الجهاز. ولكنها الهيكل والمنتج (بضم الميم وتسكين النون وفتح التاء) أى الهيكل في حالة الإنتاج. بمعنى أن محطة الإرسال بدون عمل وبدون أجهزة راديو (استقبال) أو أجهزة تليفزيون ليست وسيلة إعلام. والمطبعة بدون ورق ومادة صحفية وبدون جريدة أو مجلة ليست وسيلة إعلام ولكنها عندما تدور دورتها الإعلامية هنا يتحقق معنى الوسيلة.

ونجد أن كلمة منبر مثلاً تدلنا في العرف الإسلامي على البناء الخشبي ذى الدرجات المعدودات في المسجد. وهذا المنبر يقف عليه الخطيب في يوم الجمعة ليخطب قبل صلاة الجمعة في وقت الظهر وفي العيدين أيضاً. هذا المنبر في العرف الإسلامي وسيلة اتصال أى وسيلة إعلام إذا كان الناس في المسجد وإذا حضر الخطيب وإذا ألقى خطبته من فوقه. وفي غير ذلك مثله مثل سجادة الصلاة أو المقعد الذي يجلس عليه القارئ ليقرأ القرآن، جزء من أثاث المسجد.

وكلمة منبر تدلنا في العرف الثقافي على معنى التعبير عن الرأى فالصحافة منبر من منابر التعبير عن الرأى واجتماعات الأمم المتحدة منبر من منابر التعبير عن الرأى وكذلك اجتماعات المجالس الشعبية والوطنية وما شابه ذلك. ولكى تصبح الوسيلة وسيلة إعلام وليست جهازاً أو آلة لابد أن تكون في العمل أى في التنفيذ أى في حالة الدوران أى في التشغيل.

وهنا يطرح سؤال: هل الخطبة هى وسيلة الإعلام أم المنبر هو وسيلة الإعلام؟ الجواب: وما هو التناقض في ذلك؟ الخطبة وسيلة إعلام إذا ألقيت من فوق المنبر في المسجد، وإذا ألقيت هى نفسها بألفاظها ونبراتها في مظاهرة، وإذا ألقيت هى نفسها بألفاظها ونبراتها في البرلمان، وإذا ألقيت هى نفسها ونبراتها في مجلس الأمن.والمنبر في المسجد ومنصة الخطب في القاعات الوطنية والدولية وسائل إعلام عندما تعمل. وشبيه بهذا القول.السؤال هل الفيلم وسيلة إعلام؟ أو دار عرض السينما هى وسيلة إعلام؟ ما الفرق؟ الفيلم في التليفزيون وسيلة إعلام. والفيلم في نوادى المشاهدة وسيلة إعلام. والفيلم في قوافل العرض في الريف والبوادى وسيلة إعلام. ودار السينما في أثناء العرض وسيلة إعلام.

وسائل الإعلام في عصر النبوة بين التحديد والخلط بوسائل الاتصال الحضارى:

لقد ذهب أستاذنا المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه الإعلام في صدر الإسلام إلى القول: ومهما يكن من شئ. فنحن إذا استعرضنا وسائل الاتصال بالجماهير في عهد الرسول والخلفاء فسنجد أن أقواها تأثيرا في النفوس وأعظمها نجاحاً في الترويج للعقيدة التي جاء بها الرسول ما لا يقل عن تسع وسائل نذكرها مرتبة حسب أهميتها

على الوجه الآتي:

١- القرآن الكريم.

٢- الحديث الشريف والخطبة النبوية.

٣- القدوة الحسنة من جانب الرسول والصحابة أجمعين.

٤- الاتصال الشخصي والجمعي وهو من أقوى وسائل الإعلام قديما وحديثاً.

٥- أسلوب القصص، وهو وسيلة إعلامية ظهرت أول ما ظهرت في القرآن الكريم، ثم ظهرت على أيدى نفر ممن دخلوا الدين الجديد أطلق عليهم اسم القصاصين. كان لهذه الوسيلة أعمق الأثر في تعلق المسلمين بهذا الدين. ثم في ميدان الجهاد من أجل نشر هذا الدين.

٦- مواسم الحج أو مواطن التجمعات الإسلامية على أوسع نطاق. وقد كانت هذه المواسم أشبه بالمؤتمرات الإسلامية الكبرى أو الأسواق العامة.

٧- الغزوات التي نظر إليها الباحث على أنها وسيلة إعلامية أوجبها القرآن لنشر الإسلام.

٨- العلاقات الإنسانية.

٩- القصيدة الشعرية.

ولكنى لا أذهب مع أستاذى في هذا، بل أرى أمراً مختلفاً في وسائل الإعلام في عصر النبوة شديد الاختلاف. إننى أرى أنه لا ينبغى الخلط بين وسائل الإعلام في عصر النبوة ووسائل الاتصال الحضاري أو الثقافي. فالحروب والحج والقرآن والأحاديث ليست ــ في رأيي ــ وسائل إعلام في عصر النبوة. ولكنها أصبحت بعد عصر النبوة فيما عدا القرآن ــ من وسائل الاتصال الثقافي أو الاتصال الحضارى. ويبقى للقرآن موقعه الخاص في الدين الإسلامى باعتباره المصدر الشامل لتنظيم حياة البشر في سبيل كسب الدنيا والآخرة.

والقول بأن الآذان وسيلة من وسائل الإعلام يعادل من يقول بأن دقات ساعة (بج بن) أو جامعة القاهرة أو ساعة الراديو في أى بلد من البلدان وسيلة إعلام، وهذا غير صحيح. إن الآذان إعلان بدخول الوقت الخاص بالصلاة ودعوة إلى إقامة الصلاة.

وعند الحديث عن وسائل الإعلام في عصر النبوة لابد أن نفرق بين وسائل الإعلام وبين وسائل الاتصال الشخصى المباشر، وبين القدوة أو السلوك الذي يعد في مفهومنا المعاصر ضمن مجال العلاقات العامة. وإننا نستطيع أن نبين أبرز الوسائل الإعلامية في عصر النبوة بطريقين: أولهما: الوسائل التي تتكرر وتصبح لها الغلبة في حياة العصر نفسه بصفة عامة، وثانيهما: تتبع مسيرة الدعوة واستجلاء الوسائل الإعلامية من خلال مسيرة الدعوة.

وفي مجال الوسائل التي كانت لها الكثرة استعمالاً نجد الآتي:

(١) الخطبة:

وقد كانت في مكان الصدارة منذ وقفته ﷺ على الصفا يبدأ الطور العلنى للدعوة إلى خطبته في حجة الوداع، مما سنتعرض له تفصيلاً عند الحديث عن وسائل الإعلام من خلال مسيرة الدعوة. وقد أصبح للخطبة موقع ممتاز حيث أصبحت الخطابة من الشعائر، ففي صلاة الجمعة يجتمع المسلمون في المساجد ليسمعوا خطبة الجمعة في كل أسبوع. هذا إلى جانب الخطبة في صلاة العيدين وفي الحج.

وقد كان النبي ﷺ أكثر خطباء الدعوة خطابة. لقد كانت الخطبة وسيلة رئيسة للرسول ﷺ في شرح أركان الإسلام وقد استغرق ذلك بطبيعة الحال عصر النبوة كاملاً.

وكان قادة الإعلام بالدعوة من أصحابه الذين شاركوا النبي في استخدام هذه الوسيلة للإعلام بالدعوة يخطبون بآيات من القرآن ويقتبسون من معايشتهم للنبي وتعلمهم منه. ولم تكن الخطبة جديدة على المجتمع الذي سكن الجزيرة العربية عندما جاء الإسلام فقد كانت مشهورة في الجاهلية. ولقد وقعت خطب قس بن ساعدة الإيادى — على قلتها – موقعا ممتازا في ذاكرة التاريخ. كان قس في الجاهلية يخطب في سوق عكاظ يدعو الناس إلى التأمل في الكون وفي الموت والحياة بما يؤكد معرفته بالوحدانية. وربما كان هذا شعاعا بقى من دين سيدنا إبراهيم. ويذهب جمهور الباحثين إلى القول بأن الخطبة أصبح لها شأن كبير بظهور الإسلام وهو حكم يتفق مع جميع المقاييس لظروف الدعوة والتغيير الشامل لحياة الجزيرة العربية.وتمثل الخطبة في عصر النبوة العمود الفقرى لكثير من الوسائل الأخرى مثل الحوار والمناظرة وما شابه ذلك.

اللقـــاء أو الندوة أو المحاضرة:

كان الرسول ﷺ قد اتخذ دار الأرقم بن عبد مناف بمكة مركزا للدعوة إلى الإسلام في الطور السرى للدعوة. وكانت تسمى دار الإسلام فيلتف المسلمون الأوائل حـــول الرسول ﷺ بعيدا عن المشركين يتلون القرآن، ويتعلمون مبادئ الإسلام. ثم ما لبث أن أصبح منزل الرسول ﷺ بمكة محط أنظار المسلمين ومعهدهم. ثم أصبح المسجد فيما بعد المكان المعهود للعلم والفتوى والقضاء إلى جانب العبادات.

المسجـــد:

على مشارف المدينة في قباء في طريق الهجرة نزل رسول الله ﷺ فأقام من يوم الاثنين إلى يوم الخميس. وأسس أول مسجد في الإسلام. وهو المعروف حتى الآن بمسجد قباء. ثم خرج إلى المدينة يوم الجمعة فصلاها في بنى سالم بن عوف في المسجد الذي ببطن وادى (رانوناء). وأقبل الأنصار يريدون قيادة ناقته ﷺ إلى بيوتهم ويتزاحمون في ذلك. فقال لهم ﷺ خلوا سبيلها فإنها مأمورة. فظلت حتى بركت حيث مسجده في المدينة المنورة وكان مربدا [٥٤]، ثم أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يبنوا مسجداً وعمل الرسول معهم في البناء حتى أتمه. وكان هذا المسجد مركز الدعوة.

قال عمر بن الخطاب: كنت أنا وجار لى من الأنصار في بنى أمية بن زيد، وهى مـــن عوالى المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوما. وأنزل يومـــا. فـــإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك.

ويذكر ابن اسحاق في سيرته[٥٥] مساجد الرسول ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك بأنها كانت معلومة:

١- مسجد بتبوك.

٢- مسجد بثنية مدران.

---

(٥٤) مكان تجفيف البلح والحب وغيرهما.

(٥٥) السيرة النبوية لابن هشام (تقديم طه عبد الرؤوف) الجـــزء الرابع ـــ مكتبة الكليـــات الأزهريـــة ـــ القاهرة. ص ١٢٩.

٣- مسجد بذات الزراب.

٤- مسجد بالأخضر.

٥- مسجد بذات الخطمى.

٦- مسجد بآلاء.

٧- مسجد بطرف البتراء. من ذنب كوكب.

٨- مسجد بالشق، شق تارا.

٩- مسجد بذى الجيفة.

١٠-مسجد بصدر حوض.

١١-مسجد بالحجر.

١٢- مسجد بالصعيد.

١٣- مسجد بالبوادي، اليوم وادي القرى.

١٤- مسجد بالرفعة من الشقة، شقة بنى عذرة.

١٥- مسجد بذى المروة.

١٦- مسجد بالفيفاء.

١٧- مسجد بذى خشب.

ولعله لم يذكر المسجد النبوى بالمدينة ومسجد قباء لشهرتهما، وكما أنه لم يذكر المسجد المعروف بذى القبلتين. وكان المسجد في عصر النبوة وسيلة الإعلام المركزية.

بعث المندوب الإعلامى أو المعلم:

ويقف مصعب بن عمير[٥٦] علماً في تاريخ الدعوة باعتباره أشهر المعلمين الذين بعثهم الرسول ﷺ ليعلم الإسلام ويفقه الناس في الدين ويقرئهم القرآن. كان ذلك عقب بيعة العقبة الأولى. لقد أمره رسول الله ﷺ أن يذهب معهم إلى المدينة. فكان يصلى بهم ويعلمهم الإسلام. ويدعو إليه. وفي تاريخ الدعوة تستوقفنا شخصية مصعب ابن عمير باعتباره داعية الإسلام في المدينة وقد أوفد إليها معلما قبيل الهجرة ذهب مع

---

(٥٦) استشهد مصعب في أحد وهو يقاتل دون رسول الله ﷺ حتى أن قاتله ظن أنه الرسول وأشاع ذلك بين قريش.

أسعد بن زرارة إلى مساكن بنى عبد الأشهل. في ظل حائط بئر جلس يعلم الناس وينشر الإسلام. في ذلك الوقت رأى سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا قومهما بنى عبد الأشهل –وكان لم يدخلا الإسلام بعد– أن في ذلك مساساً بهيبتهما. قال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا ديارنا يسفهان ضعفاءنا فأزجرهما. وقد قال سعد ذلك لأن أسعد بن زرارة ابن خالته ولا يريد أن يؤذيه بنفسه ويؤذى مصعباً معه. فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما. فلما رآه سعد بن زرارة قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه ولكنه وقف عليهما متشتما فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره. قال أسيد: أنصفت. فلما جلس عرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن. فقال: ما أحسن هذا الكلام. وأسلم ومع سعد بن معاذ تكرر الأمر نفسه إذ قال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ فقال: أنصفت. فلما جلس وسمع أسلم. وبإسلام هذين الزعيمين لم يمس رجل ولا امرأة من بنى عبد الأشهل خارج الإسلام وتزدهر سنة بعث المندوب الإعلامى والمعلم إلى القبائل بعد الفتح حيث نرى الناس يدخلون في دين الله أفواجا.

استقبال الوفود وإقامة الراغبين في تلقين الدعوة عند النبى ﷺ

عقب فتح مكة أقبلت وفود القبائل على رسول الله ﷺ لتنظر في أمر هذا الدين الجديد. ولتحدد موقفها منه. وكانت وفود ثقيف وتميم وتغلب إلى جانب الوفود القادمة من نجران والبحرين واليمن تعود بعد إسلامها بواحد من صحابة رسول الله ببعثة النبي معهم في عودتهم إلى قبائلهم ليفقههم في الدين. ويجيب على أسئلتهم. يقوم بدور المعلم ودور رجل الإعلام في نفس الوقت. وكان بعض الصحابة يقيم عند الرسول يتعلم أحكام الإسلام وعباداته ثم يعود إلى أهله وقومه فيعلمهم ويفقههم، ومن هذا ما أخرجه الإمام البخارى عن مالك ابن الحويرث قال: أتينا النبي ﷺ ونحن شبيبة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة فظن أنا اشتقنا أهلنا وسألنا عمن تركنا في أهلنا، فأخبرناه وكان رقيقاً رحيما فقال: (أرجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتمونى أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم).

المناظرة والحـــوار

قلنا أنه بعد فتح مكة أقبلت وفود القبائل على رسول الله ﷺ لتنظر في أمر هذا الدين الجديد. ولتحدد موقفها منه. وكان وفد بني تميم من أشهر الوفود الذين حفظت ذاكرة التاريخ حضورهم للمدينة. لقد كانت بداوتهم وخشونة طباعهم أول ما لقيه الرسولﷺ، وأول حوارهم مع المسلمين، دخلوا المسجد (مسجد الرسول في المدينة) ونادوا من وراء الحجرات أن أخرج إلينا يا محمد. جئناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا. فأذن لهم النبي ﷺ فقام عطارد بن حاجب خطيبا فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل، وهو أهلـــه، الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل منها المعروف، وجعلنـــا أعـــز أهـــل المشرق، وأكثره عدداً وأشده عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا بـــرؤوس النـــاس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ماعددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا تنحينا عن الإكثار، وأقول لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس فندب الرســـول ﷺ ثابت بن قيس الخزرجي ليجيب فقال: (الحمد لله الذي له الـــسموات والأرض خلقـــه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شئ قط إلا فعله، ثم كان من قدرتـــه أن جعلنا ملوكا واصطفي من خير خلقه رسولا أكرمنا نسبا، وأصدقنا حـــديثاً وأفـــضلنا حسبا. فأنزل عليه كتابه و ائتمنه على خلقه، وكان خيره للعالمين، ثم دعـــا النـــاس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه، أكـــرم النـــاس أحـــساباً وأحسنهم وجوها، وخير الناس فعالا، ثم كنا أول الخلق إجابة، واستجابة لله حين دعانـــا رسول الله ﷺ فنحن أنصار ووزراء رسول الله نقاتل الناس حتى يؤمنوا. فمن آمن بـــالله ورسوله متع بماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقـــول هذا، واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. ثم تحـــدث شـــاعرهم ورد عليه حسان مما سنتحدث عنه تفصيلا في الفصل التالى. وفي ختام الحوار أسلم وفد بـــني تميم. ومهما تعرضت النصوص في الخطبتين للنقد في دقة الرواية فإن الواقعة في حد ذاتها تبين أن التناظر بالخطابة كان وسيلة من وسائل الحوار في عصر النبوة.. ومن ثم وســـيلة من وسائل الإعلام بالدعوة.

الوسائل ومسيرة الدعوة

إن وسائل الإعلام في عصر النبوة لا يمكن عزلها عن مسيرة الدعوة ذاتها. ولاشك أن الباحث تأخذه الرهبة وهو يتجول بفكره في الثلاثة والعشرين عاماً قمرياً التي بدأت بنزول الوحي على محمد ﷺ إلى يوم وفاته. لأن ما حدث فيها شامخ وعميق ومتعدد الأبعاد، ومرتبط بالأزل ومنوط بالأبد. كما أن تلك الفترة ـــ التي اصطلح على تسميتها بعصر النبوة ـــ زودت العقل والتفكير والتدبر بالغيب، ورتبت غرائز الناس في الأرض وما ينفعهم فيها، ومختلف أوجه حياتهم بقواعد يوحى بها من السماء وتكفل لهم غنم الآخرة.

إن ذلك لابد أن يملى على الباحث -بغض النظر عن عقيدته- رهبة وحيرة أشبه بحيرة الصائغ أمام صندوق كبير من المجوهرات عليه أن يختار جوهرة منه ويجلوها ليعرضها ويبرز فيها فنه وصنعته. ويختلف إحساس الباحثين بهذه الرهبة، كما يختلف أيضا تعبيرهم عنها وتحديد زواياها. ولقد تمثلت هذه الرهبة التي شعرت بها وأنا أبدأ تناول وسائل الإعلام ومسيرة الدعوة في عصر النبوة في فتنة مسميات العصر ومصطلحات العلم الذي أمارسه، وهو الإعلام. فأفصل منها أثوابا لبعض أحداث عصر النبوة فتبدو أثوابي قصيرة سخيفة ومضحكة..

الأمر الثاني: الخوف من أن يشدني المضمون في عصر النبوة فأستحي أو لا أستطيع الوقوف حيث يوجب البحث، وبذلك أصبح مجرد راوية لأطراف من السيرة دون أن أصل ببحثي إلى غايته. وبوضع هذين الأمرين أمام ناظري وبالتزام قواعد البحث العلمي تتبعت وسائل الإعلام في عصر النبوة، منذ وقفته ﷺ على جبل الصفا يبدأ الطور العلني للدعوة إلى وقفته ﷺ على جبل عرفات في حجة الوداع مؤكداً تأديته للبلاغ، مشهداً الله على ذلك بقوله: (ألا هل بلغت اللهم فاشهد) ومختتما بخطبة الوداع بيان الحقوق والواجبات للفرد والجماعة، ومحددا للأفراد مسئولياتهم.

حلقات الإعـــلام بالدعوة

إذا ألقيت حجرا في بركة ماء هادئة نجم عن ذلك تكون حلقات من الماء تبدأ صغيرة ثم تتسع شيئا فشيئا. وهكذا شأن الدعوة.. إنها حلقات بدأت صغيرة ثم اتسعت.. إنهـا جهد متتابع ومتواصل. ومنذ نزول الوحي بدأ الرسول ﷺ مسئوليته في إبلاغ الـدعوة. لقد أعلم زوجته السيدة / خديجة وأعلم صاحبه أبا بكر الصديق وأعلم ابن عمه علي بن أبي طالب أعلمهم جميعاً بأمر الدعوة فصدقوه وآمنوا بدعوته. ثم بدأت الدائرة تتسع بعد ذلك وكانت وسيلته في الإعلام بدعوته هي الاتصال الشخصي المباشر.

ولقد ظلت الدعوة في أول أمرها سرا، ولكن معنى السرية هنا -فيما أرى- معنى نسبي، لأن الدعوة كانت حديث الناس بمكة منذ أيامها الأولى. كما ذاع أمر الـدعوة وهي في طورها السرى على خارج مكة، التي كانت في ذلك الوقت ملتقى القادمين للتجارة أو لزيارة الكعبة. ومعنى السرية في الدعوة نسبي أيضاً؛ لأن العلن هو منهج الوحي وأسلوبه في خطاب الناس ونشر الحقائق، فالوحي هو النبأ العظيم كما يقول تعالى: (عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) (النبأ:١-٣).

والنبأ لا يكون خفية ولا سرا.. لأن طبيعته الظهور والعلانية. ومعنى السرية في الدعوة نسبي أيضاً لسبب ثالث، وهو أن الإعلام بكلام الله هي وظيفة الأنبياء والرسل بصفة عامة. ولا يعني ذلك أن مؤلفي السيرة على خطأ حين ذهبوا إلى القول بأن الدعوة ظلت سراً حتى نزل قول الله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين). ولكن ما يؤكده التمحيص الدقيق لقراءة كتب السيرة هو أن إعلام النبي ﷺ للناس بالدعوة -سواء كانوا أقرب الناس إليه كزوجته وأقرب أصدقائه إليه وأقرب أبناء عمومته إليه أو من يليهم في القرب- كان عمل الرسول اليومي، بل إن الإعلام بالدعوة كان حياته، وأن سرية الدعوة لم تكن بالمعنى المغلق لمفهوم السرية، وإنما كانت بمعنى السير المتأني والمتعقل بالدعوة إلى غايتها. لقد شجعنا كتاب السيرة الأوائل على النظر في سيرة الرسول ﷺ بعين فاحصة، وعلى الربط بين أحداث مختلفة لتجلية حقيقة تاريخية أو حقيقة علمية، لأنهم سردوا الأحداث دون عناية بالتعليق عليها، وأقدموا على تسجيلها دون وجهة نظر مسبقة. (لقد كان وراء منهاجهم هذا في الكتابة، ووراء ذلك القدر المذهل من

الموضوعية الذي تزخر به مؤلفاتهم، واعتبارهم التاريخ المظهر الخارجي لإرادة الله في عالمنا هذا واعتقادهم أنه بالإمكان التوصل إلى كنه هذه الإرادة باستقراء ظواهرها[٥٧]، كان حصيلة ذلك التراث النقي الذى وصل إلينا. وبناء على ذلك يمكن القول بأن الاتصال المباشر أو الاتصال الشخصى بلغة الإعلام اليوم، كان وسيلة الإعلام بالدعوة التي اتخذها الرسول ﷺ منذ بداية الوحى، وإن الإعلام بالدعوة كان أشبه بالحلقات المتوالية الاتساع.

لقد بدأ الطور الثانى من أطوار الإعلام بالدعوة بعد ثلاث سنوات من نزول الوحى فيما يروي بعض كتاب السيرة. ومع هذا الطور بدأت صفحة جديدة من وسائل الإعلام بالدعوة في عصر النبوة.

الطور العلنى للدعوة:

يبدأ هذا الطور من أطوار الإعلام بالدعوة بنزول الآية الكريمة: (وأنذر عشيرتك الأقربين).. وتشير وقائع التاريخ إلى بداية لافتة للنظر في وسائل الإعلام بالدعوة فقد صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني عدى، لبطون قريش حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش. فقال النبي: أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا. فنزلت (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)[٥٨]

وفي رواية أخرى أخرجها أحمد وجماعة عن أبى هريرة، تقول إن الرسول ﷺ دعا قريشاً وعم وخص فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعا، يا معشر بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا

---

(٥٧) حسين أحمد أمين ــ (تأملات في تطور كتابة سيرة النبي ﷺ في الشرق والغرب) ــ مجلة العربى (العدد ٢١٥، أكتوبر ١٩٧٦م).

(٥٨) سورة المسد: الآية ١-٢.

ولا نفعا، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعاً، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لك ضرا ولا نفعا. ألا إن لكم رحما وسأبلها ببلالها. وجاء في بعض الروايات أنه ﷺ لما نزلت الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) جمع عليه الصلاة والسلام بنى هاشم فأجلسهم على الباب، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت ثم طلع فأنذرهم.

وجاء في روايات أخرى أنه ﷺ أمر علياً كرم الله وجهه أن يصنع طعاماً ويجمع له بنى عبد المطلب ففعل، وجمعهم وهم يومئذ أربعون رجلاً فبعد أن أكلوا أراد ﷺ أن يكلمهم فبدر أبو لهب إلى الكلام. فقال: لقد سحركم صاحبكم فتفرقوا. ثم دعاهم في الغد إلى مثل ذلك. ثم بدرهم بالكلام فقال: يا بنى عبد المطلب إنى أنا النذير إليكم من الله تعالى والبشير، قد جئتكم بما لم يجئ به أحد جئتكم بالدنيا والآخرة فأسلموا تسلموا، وأطيعوا تهتدوا. ويعلق الإمام الألوسى على هذه الروايات بقوله: "إذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار" (٥٩).

إن أشهر الروايات هى ارتقاء الرسول ﷺ الصفا، وهى أكثرها جذبا للأنظار. ولكن الموضوعية التي جعلت الإمام الألوسى يقول: (إن صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار). تدفعنى إلى القول بأن ما تؤكده وقائع التاريخ من مثابرة الرسول ﷺ في سلوك سبل عديدة في الإعلام بالدعوة يجعلنى أكثر ميلاً إلى ترجيح تعدد طرق الإعلام بالدعوة. وأن الروايات لا تتناقض في نظري بل تتكامل. وقد يكون بعضها وقع بعد فترة زمنية من الرواية الأولى. فإن الرواية التي تذكر أنه ﷺ جمع نساءه وأهله في البيت — إن كانت قد وقعت — فالأرجح أنها وقعت بعد وفاة خديجة لأن الرسول ﷺ لم يجمع معها زوجة أخرى وكان موت خديجة قبل الهجرة بثلاث سنوات.

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الروايات تؤكد ظهور وسيلة جديدة من وسائل الإعلام بالدعوة هى ما يمكن أن نسميه بلغة العصر الاتصال بالجماهير. فالرسول ﷺ يستخدم الخطبة في جمهور من الناس كوسيلة لإعلامهم بالدعوة. وبذلك تصبح الخطبة

---

(٥٩) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسى — روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني — القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية الجزء التاسع عشر ص ١٢١، ١٢٢.

وسيلة ثانية من وسائل الإعلام بالدعوة إلى جانب الاتصال الشخصي الذي لم يكن قاصراً على أهل بيته أو أصدقائه، بل كان صلوات الله وسلامه عليه لا يسمع بقادم يقدم من العرب له اسم أو شرف أو ثقل أو تأثير إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده.

الفعل ورد الفعل:

برغم أن حديثنا خاص بوسائل الإعلام في عصر النبوة فإن رد الفعل لدى المشركين لم يكن مرتبطاً بالمضمون فقط بل وبالوسيلة أيضاً. وكان رد الفعل لدى المشركين في جملته ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر (التشويش) على إعلام الرسول بالدعوة بشتى السبل. ولقد تواكبت طرق التشويش مع تطور وسائل الإعلام بالدعوة بشكل سافر منذ بداية الطور العلني للدعوة حتى فتح مكة. في البداية كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أرادوا الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم حتى تقاتلوا. ولما بدأ رسول الله ﷺ في الدعوة بذكر آلهة المشركين وتسفيه هذه الآلهة، وتسفيه عقول من يعبدها من دون الله.

كان رد الفعل أن ذهب رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب قائلين:

يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فلما اشتدت الدعوة اشتد أسلوب زعماء قريش مع أبي طالب، ولجأ الكافرون إلى وسائل المقاطعة الاقتصادية وتسليط سفهائهم لإيذاء الرسول وتكذيبه، ورميه بالشعر والكهانة والجنون. وقد حاول مشركو مكة وكفارها أن يمنعوا الرسول ﷺ من الاتصال بالناس لخوفهم من تأثيره عليهم. ولخوف الكفار من التأثير القوى للقرآن فقد حاولوا التشويش عليه ايضاً. ويتحدث القرآن عن محاولتهم (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (فصلت: ٢٥). كما لجأ الكفار إلى استخدام وسائل أخرى للتأثير في الناس لتكون مضادة لتأثير القرآن عليهم ينجحون في جذب الناس إليهم، فلجأوا إلى الشعراء الذين قاموا بإنشاء

القصائد الشعرية وسير الأبطال.. إلخ بل إنهم ذهبوا إلى الأكثر من ذلك فحاولوا تقليد القرآن نفسه، وأنى لهم هذا (وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً). كما كان لشعراء الكفار دور في هجاء الرسول والمسلمين والدعوة. لقد برز دور الشعر الذي أخذ شكل الدعاية. وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ يرد على شعراء الكفار. وهذا ما سنعالجه بالتفصيل في المحور التالي.

الدائـــرة الثالثة ووسائلها.

يقول الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية: إن مراتب الدعوة خمسة: المرتبة الأولى: النبوة، الثانية: إنذار عشيرته الأقربين، الثالثة: إنذار قومه، الرابعة: إنذار قوم ما آتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة، الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر [٦٠] وهو قول يمس وسائل الإعلام في عصر النبوة مسا مباشراً. وفي مرحلة توجيه الدعوة إلى الدائرة الثالثة من دوائر جمهور الدعوة نرى أن مسائل الإعلام أخذت شكل عرض الرسول ﷺ للدعوة على القبائل والاستفادة من المواسم للإعلام بالدعوة. وفي هذا الطور من أطوار الدعوة تمت الهجرة إلى الحبشة. ثم كانت الهجرة إلى المدينة نتيجة للقائه ﷺ للوفود وإعلامهم بالدعوة. وبنجاح الهجرة إلى المدينة بدأت دولة الإسلام. وهنا سنجد أن الإعلام المضاد بشتى وسائله لم يكف عن ملاحقة الإعلام بالدعوة حتى أن هجرة الحبشة [٦١]. تشهد حواراً مصيريا ودقيقا بين المهاجرين المسلمين وكفار مكة أمام ملك الحبشة، حاول فيه الكفار أن يوقعوا بين الإسلام والمسيحية، ولكن صدق المسلمين وصلابتهم وحسن تصرفهم نجاهم من الوقيعة.

---

(٦٠) الإمام الحافظ عبد الله ابن قيم الجوزية ــ زاد المعاد في هدى خير العباد ــ الطبعة الأولى ــ القاهرة مطبعة محمد على صبيح ١٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٤ م ــ ص ٢٧.

(٦١) كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة تضم اثنى عشر رجلا وأربع نسوة ثم بلغهم أن قريشا قد أسلمت ــ وكان هذا الخبر كاذبا ــ فرجعوا إلى مكة فلما بلغهم أن الأمر أشد مما كان رجع منهم من رجع ودخل جماعة فلقوا من قريش أذى شديدا. ثم أذن لهم الرسول ﷺ في الهجرة الثانية إلى الحبشة فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا ومن النساء ثمان عشرة امرأة فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال فبلغ ذلك قريشا فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير المخزومي في جماعة ليكيدوا لهم عند النجاشي ففشلوا في ذلك.

ومن وسائل الإعلام في هذه الحلقة أو الدائرة الثالثة من دوائر الإعلام بالدعوة الاستفادة من المواسم ليعرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل[٦٢]. فكان صلوات الله وسلامه عليه يعرض نفسه في المواسم ــ إذا كانت ــ على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويتبعوه.

وتروى كتب السيرة رواية عبد الله بن عبيد الله بن عباس إذ يقول: (إني لغلام شاب مع أبي بمني، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول يابني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به. قال: وخلفه رجل أحول وضيء له غديرتان، عليه حلة عدنية. فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه). قال: فقلت لأبي: يا أبت من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب، أبو لهب.

وإلى جانب التشويش كرد فعل مستمر كان رفض بعض الكفار للدعوة رفضا مرذولا. فعندما أتى رسول الله ﷺ بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام فلم يكن أحد من العرب أقبح ردا عليه منهم. وكما كان الرفض كانت المساومة طريقا في الرد على إعلام الرسول ﷺ بالدعوة. فهذا ابن صعصعة يرد على رسول الله ﷺ بقوله: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك. ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال الرسول ﷺ الأمر لله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه. ويروي ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق أنه قال: حدثني الحصين بن عبد الرحمن ابن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمود بن لبيد قال: لما قدم أبو الحسير أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من

---

(٦٢) ابن هشام ــ السيرة النبوية: تحقيق: مصطفي السقا وآخرين ــ والجزء الثاني ــ القاهرة: مصطفي البابي الحلبي وأولاده ــ ١٩٣٦ ــ ص ٦٣.

قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وماذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأنزل على الكتاب. قال ثم ذكر لهم الإسلام. وتلا عليهم القرآن. قال: فقال إياس بن معاذ، وكان غلاما حدثا، أي قوم.. هذا والله خير مما جئتم له. قال: فيأخذ أبو الحسير أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا. قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج. ولم يكن رسول الله ﷺ يعرف اليأس في إبلاغ الدعوة. وكان تكرار الوسيلة في العام التالي فيه خير كثير.

تروى لنا سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ خرج في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: "لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن يهودا كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم: إن نبيا مبعوثا الآن قد أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا: إنا قد تركنا قومنا و لا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

ثم كانت بيعة العقبة الثانية وكانت الهجرة، وكانت بداية الدولة الإسلامية في المدينة. ومن ثم اتخذ الإعلام بالدعوة وسائل جديدة. فأصبحت صورة الإعلام اليومى بالدعوة تتم بتعليم المسلمين الجدد. وأقيم المسجد النبوي حيث بركت ناقة الرسول ﷺ. وبدأت وسيلة أخرى من وسائل الدعوة هى بعث الوفود.

الإعلاميون الشهداء

قد يرى المتتبع لكل ما سقناه من وسائل الإعلام بالدعوة أن شيئا من الراحة يصيب الداعية والدعاة ببناء الدولة الإسلامية في المدينة. ولكن تاريخ الدعوة يؤكد أن دعاتها لاقوا الشهادة كما لاقاها زملاؤهم في الغزوات. لقد بدأت وسيلة إعلام جديدة بعد الهجرة هى بعث الرسول ﷺ وفق ترتيبات معينة بعض أصحابه لإبلاغ دعوته.

فقدم أبو عامر بن مالك[٦٣] على رسول الله ﷺ المدينة فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد عن الإسلام، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء أنا لهم جار، فأبعثهم فليدعوا الناس في أمرك، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في أربعين رجلا من أصحابه، من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة (وهى أرض بين بنى عامر وحرة بن سليم) فلما نزلوها بعثوا واحدا منهم وهو حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما آتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى مادعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقدا وجوارا. فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق فعاش حتى استشهد يوم الخندق.

---

(٦٣) المرجع السابق ــ ص ١٩٣، ١٩٤

وقد لحق شهداء بئر معونة بشهداء الرجيع [٦٤]. ذلك أنه قدم على رسول الله ﷺ رهط من العون بن خزيمة، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يبعث معهم نفرا من أصحابه يفقهون الناس في الدين وقراءة القرآن وشرائع الإسلام، قائلين إن في قومهم إسلاما، ولكنهم يحتاجون إلى من يفقههم بالإسلام. وتروى كتب السيرة أن الرسول ﷺ اختار ستة ويذكر بعضهم أنهم عشرة من أصحابه برئاسة عاصم بن ثابت، ويرى آخرون أن قائدهم كان مرثد بن أبي مرثد. وعندما وصل هؤلاء الإعلاميون الشهداء إلى مكان يسمى الرجيع وهو ماء لقبيلة هذيل بناحية الحجاز، غدر بهم من الذين جاؤوا يطلبونهم من الرسول ﷺ فاستصرخوا عليهم هذيلا، وفوجئ الشهداء الأبرار وهم في رحالهم بالرجال يحيطون بهم شاهرين سيوفهم، فأخذوا سيوفهم ليقاتلوهم فقالوا لهم: إنا والله لا نريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقاتلكم. ماذا حدث؟ رفض بعض الشهداء عهد الكافرين. وهم عاصم بن ثابت، مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير فقاتلوا وقتلوا ثلاثتهم. وتروى كتب السيرة أن الغادرين أهل هذيل أرادوا قطع رأس عاصم ليبيعوها لامرأة من المشركين قتل عاصم ابنيها في يوم أحد، ولكن الدبر (الزنانير) حالت بينهم وبين قطع رأسه، وانتظروا الليل فتذهب الدبر عن جثته فيقطعوا رأسه. وكان عاصم قد أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا. فاستجاب الله دعوته في حياته وموته.

ماذا كان من أمر الثلاثة الآخرين؟ زيد بن الدثنة، وخبيب بن عدى، وعبد الله بن طارق الذين سلموا سيوفهم وأصبحوا أسرى. في الطريق إلى مكة حاول عبد الله بن طارق الهرب فقتله الغادرون بالحجارة. وفي مكة بيع الرجلان. فأما زيد فقد اشتراه صفوان بن أمية بن خلف فقتله في مشهد مثير من كفار مكة حيث يقول له أبو سفيان وقد هيأوه للقتل: أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك فنضرب عنقه. وأنك في أهلك؟ فيرد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. وإني

---

(٦٤) أنتجت منظمة إذاعات الدول الإسلامية عام ١٩٧٩ م مسلسلا تلفزيونيا عن هذه الحادثة التاريخية بعنوان (بعثة الشهداء).

جالس في أهلي. وقتل خبيب في مشهد مثير أيضا، فقد صلبوه في التنعيم على أطراف مكة بعد أن طلب أن يصلي ركعتين قبل أن يقتلوه قائلا: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لأكثرت من الصلاة، ثم قتلوه.

إعلام الدولة الناشئة:

بنجاح الهجرة إلى المدينة بدأت نواة الدولة الإسلامية. وبدأ الإعلام اليومي وبدأ إعلام إرسال واستقبال الوفود أو الأفراد. وبنجاح الهجرة انتقل الصراع بين الرسول ﷺ ومعه المؤمنون من المهاجرين والأنصار، وبين كفار مكة ومن آزرهم من اليهود والكفار والمنافقين إلى الصدام المسلح في صورة الغزوات المتتابعة. وبنفس القدر أخذ الإعلام المضاد للدعوة صور الحرب النفسية والدعاية السوداء. فما أن نزلت الآية الكريمة بتحويل المسلمين في صلاتهم من استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة. حتى أطلق كفار مكة دعايتهم السوداء بأن النبي ﷺ قد عاد إلى قبلتهم وأنه سوف يعود إلى دينهم. وكان المنافقون يستغلون ظروف غزوة الخندق ليطلقوا دعايتهم السوداء بأن النبي ﷺ كان يعدهم بملك كسرى وقيصر وهاهم لا يستطيعون الخروج من المدينة. وظل إعلام الدعوة يواجه أساليب الحرب النفسية والدعاية السوداء من اليهود والمنافقين وكفار مكة والعرب، ويفند ضلالهم، حتى كانت الجولة الحاسمة بفتح مكة. وتمثل الفترة من الهجرة إلى الفتح أقصى فترات الحرب النفسية والإعلام المضاد. والقرآن الكريم يحوى الكثير من الآيات التي ترد على تساؤلات اليهود الخبيثة، وعلى المنافقين والكفار في هذا الصدد. وقبيل الفتح وبتوقيع صلح الحديبية مع كفار مكة بدأت حلقة جديدة من حلقات الإعلام بالدعوة يمكن أن نطلق عليها الحلقة العالمية.

الرسائل إلى الملوك وسيلة إعلام دولي:

نتبين مما ترويه كتب السيرة أن صلح الحديبية [٦٥] لم يكن يلقى قبولا أو حماسا من عامة المسلمين. وأن رؤية الرسول ﷺ كانت أبعد مما رأى كثير من المسلمين، بل يمكن

---

(٦٥) صلح الحديبية: كان هذا الصلح برغم ما فيه غزوا نفسيا لكفار مكة. وترجع القصة إلى خروج النبي ﷺ في ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة بألف وأربعمائة من أصحابه قاصدين مكة للاعتمار فأحرموا بالعمرة من ذى الحليفة فلما وصلوا الحديبية بعث الرسول ﷺ عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى مكة ليخبر أهلها بأن رسول الله ﷺ يريد زيارة بيت الله الحرام ولم يكن قاصدا حربا. فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم.

القول مما رأى عامة المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولكن هذا الصلح كان مفتاح تصفية الجيوب اليهودية التي كادت تقتل كل من بقى في المدينة من المسلمين عندما تركها رسول الله ﷺ متجها إلى الحديبية. وكان هذا الصلح أو الانفاق هو الطريق إلى فتح مكة بغير دمار أو قتال.

يرى الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية في كتابه زاد المعاد أن الرسول ﷺ لما رجع من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض وأرسل إليهم رسله [٦٦] فكتب إلى ملك الروم، فقيل له إنهم لا يقرؤون كتابا إلا إذا كان مختوماً، فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه ثلاثة أسطر: (محمد) سطر، و(رسول) سطر، و(الله) سطر. وختم به الكتب إلى الملوك. وبعث بها مع سفراء من خيرة أصحابه بعد صلح الحديبية[٦٧].

- الرسالة إلى النجاشي ملك الحبشة حملها عمرو بن أمية الضمرى.
- الرسالة إلى قيصر ملك الروم واسمه (هرقل) حملها دحية بن خليفة الكلبى.
- الرسالة إلى (كسرى) ملك الفرس حملها عبد الله بن حذافة السهمى.
- الرسالة إلى المقوقس حاكم مصر واسمه (جريح بن مينا) ملك الإسكندرية عظيم

=وظن المسلمون أنهم قتلوه، فبايع رسول الله ﷺ أصحابه على أن يدخلوا مكة حربا، فلما بلغ المشركين ذلك أطلقوا سراح سيدنا عثمان. وبدأت مفاوضات الصلح التي كان أبرزها جورا أن من يرجع من المسلمين إلى المشركين لا يردوه وأن من يأتى إلى النبي مسلما يرده إلى المشركين. وفي العام التالى دخل الرسول ﷺ مكة معتمراً.

(٦٦) توجد صور في بعض الكتب تقول إنها صورة من الرسائل التي بعث بها النبي ﷺ وهى مصورة من محفوظات في المتاحف. ولكن جمهور الباحثين يؤكد أنها مزيفة. ويبدو أنها صفحات مزوعة من بعض مخطوطات السيرة قبل الطباعة والورق. وأثبت كثير من الباحثين وجود أخطاء إملائية ونحوية في تلك المخطوطات مما يؤكد تزييفها.

(٦٧) وقد ذكر بعض الباحثين أن كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء وإلى ولاته وعماله وقواده، وإلى أهل الذمة وغيرهم زادت عن ٢٨٠ مائتى كتاب وثمانين كتاباً. ولكنا قصرنا الحديث على الرسائل الخاصة بالإعلام الدولى ومثال كتبه ﷺ إلى ولاته ما كتبه إلى وائل بن حجر لقومه في حضرموت فيه الخطوط الكبرى للإسلام. وبعض أنصبة الزكاة. وحد الزنا وتحريم الخمر وكل مسكر حرام. وكانت مثل هذه الكتب تحوى الفرائض والسنن والديات وما شابه ذلك. (د. محمد عجاج الخطيب ــ أصول الحديث ــ ص١٩٠).

القبط حملها حاطب بن أبي بلتعه.

- الرسالة إلى الحارث بن أبي شهر الغساني ملك البلقاء حملها شجاع بن وهب الأسدي.
- الرسالة إلى هوذة بن على الحنفي أمير اليمامة حملها سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري.
- الرسالة إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين حملها عمرو بن العلاء الحضرمي.
- الرسالة إلى أميري عمان: جيفر، وعباد ابني الجلندي حملها عمرو بن العاص.

هؤلاء السفراء من أصحاب رسول الله ﷺ تم اختيارهم كجزء من المهمة، فدحية الكلبي الذي حمل مسئولية لقاء هرقل قيصر الروم في ظروف انتصاره على كسرى كان يتميز بحسن المظهر ويتميز بحسن الإيمان وحسن الإدراك. أما محتوى الرسائل فكان الدعوة المباشرة إلى الإيمان بالله وحده والإسلام. ونص الرسالة التي حملها دحية إلى هرقل يعبر عن هذا المضمون.

(بسم الله الرحمن الرحيم ـــ من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم: وأسلم يوتك الله أجرك مرتين. وإن تتول فإن إثم الأكارين [٦٨] عليك. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ).

ويكاد النص نفسه يكون بألفاظه الرسالة الموجهة إلى المقوقس فيما عدا كلمة الأكارين أو الأريسيين في بعض الروايات فإنها تصبح القبط أما الرسالة الموجهة إلى النجاشي فإنها تختلف إلى حد ما. إنها تقول:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. واشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة

---

(٦٨) (الأكارين) هم الزراع والحراث والمقصود بهم رعية هرقل.

الحصينة. فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيـــده. وإني أدعـــوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجندك إلى الله عز وجل. وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والـــسلام على من اتبع الهدى).

والرسالة الموجهة إلى كسرى ملك الفرس هذا نصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام علـــى من اتبع الهدى وآمن بالله. وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبـــده ورسوله. وأدعوك بدعاء الله. فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم. فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك).

أما أثر الرسائل فقد كان النجاح في الإعلام بالدعوة، بل والحوار حول الدعوة ذاتها. ولم تكن الرسائل للملوك رسائل شخصية وإنما كانت موجهة إلى رعايا الملوك من خلال حكامهم. أما رد الفعل فقد اختلف ممن وجهت إليهم الرسائل ومن حاشيتهم. لقد كان رد هرقل على دحية قوله: إني أعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي. ولقد عاصر أبو سفيان قبل إسلامه ســـفارة دحية، وكان في تجارة لقريش إلى الشام. بينما هو في غزة اقتاده رجال هرقـــل ليقابـــل ملكهم هو ومن معه ليسمع منهم أخبار النبي.

ويروى أبو سفيان الحادثة وقد مثلوا أمام هرقل ومعه المترجم فسألهم من أقربهم نسبا للرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فكان أبو سفيان. فقال هرقل لحاشيته: أدنوه وأقعـــده بـــين يديه، وأقعد من كانوا معه خلفه. ثم قال إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه. يقول أبـــو سفيان إنه لو كذب ما ردوا عليه ولكنه تكرم عن الكذب حتى لا يحفظوا عليه الكذب فيحدثوا به عنه. ويقول أبو سفيان أنه حاول أن يقلل في إجاباته على هرقل مـــن أمـــر الرسول، ولكن هرقل لا يكتفي بالسؤال تلو السؤال وإنما يعيد الحديث كله يـــستوثق، ويقول لترجمانه مخاطباً أبا سفيان: قل له إني سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض في أوسطكم نسبا. وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومـــه نـــسبا. وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به؟ فزعمت أن لا. وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبه أحد إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه؟ فزعمت أن

لا. وسألتك عن أتباعه أفزعمت أنهم من الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان. وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان. وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه. وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه. وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا. وكذلك الرسل لا يغدرون، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة وبالصدق والعفاف والصلة فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين، وهو نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم. ولو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه. ولوددت أني عنده فأغسل قدميه. انطلق لشأنك.

يقول أبو سفيان: فلما قال ما قال كثر عنده الصخب، وارتفعت أصوات الذين حوله من عظماء الروم، وكثر لغطهم فلا أدرى ماذا قالوا. وأمر بنا فأخرجنا. ويقول أبو سفيان إنه خرج يضرب كفا بكف. وهو إذ ذاك على الكفر لم يسلم بعد ــ على ما صار إليه أمر محمد ﷺ حتى أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام. وجملة الروايات في رد فعل هرقل أنه لم يستطع إعلان إسلامه خوفا ممن حوله.

وكان رد الفعل عند كسرى هو تمزيق رسالة النبي. وعلى العكس تماما أسلم النجاشي ملك الحبشة على أثر الرسالة ــ كما تقول بعض الروايات ــ وكان رد الفعل المصري وسطا أو بَيْنَ بَيْن، فقد رد المقوقس ردا حسنا، وأهدى للنبي ﷺ مارية القبطية التي أنجبت له إبراهيم وبعض الهدايا الأخرى التي وزعها الرسول على بعض صحابته. أما ملك اليمامة فقد أكرم رسول الرسول برغم أنه لم يسلم – فيما تقول بعض الروايات. لم يكن هؤلاء السفراء الستة الذين خرجوا في يوم واحد إلى المجتمع الدولي آنذاك هم آخر السفراء من حملة الرسائل للإعلام بالدعوة. فقد حمل رجال آخرون رسائل إلى حكام آخرين. وكان من سفراء النبي للإعلام بدعوته أفذاذ من أمثال على بن أبي طالب وأبي موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل.

بيان الحقوق والواجبات في خطبة الوداع

وعلى جبل عرفات كانت خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع بيانا للحقوق والواجبات. في علاقة الفرد بنفسه (أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته).

وفي علاقته بأسرته (إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة.. إلخ) ثم يقول ﷺ (إنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً).

ويحدد علاقة الولد بوالده، ويحدد الميراث والوصية. وفي علاقة الفرد بالمجتمع (إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام). ثم يعلن أن ربا الجاهلية موضوع، وأن دماء الجاهلية موضوعة. ثم يحدد علاقة الفرد بالعالم بقوله (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.. فليعلم الشاهد الغائب).

وهكذا أصبح الشاهد مسئولا عن الإعلام بالدعوة، الشاهد بالمعاصرة، والشاهد من الأجيال التالية: بالمعرفة والإيمان، كل إليه البلاغ وعليه البلاغ.. والإعلام بالدعوة حركة دائمة متجددة ومعين في نفس الوقت لا ينضب، وسمع الإنسان وبصره وفؤاده عنه مسئول ومسئول.